النص الكامل

مغامرات

شيرلوك هولمز

1

تأليف:
آرثر كونان دويل

فضيحة في بوهيميا



بالرسومات الأصلية

الأجيال
للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

بسم الله الرحمن الرحيم



مغامرات

شيرلوك هولمز

(١)

فضيحة في بوهيميا

نُشرت للمرة الأولى في صحيفة «ستراند» الشهرية
في عدد تموز (يوليو) ١٨٩١

تأليف: آرثر كونان دويل
ترجمة: سالي أحمد حمدي
تحرير: رمزي رامز حسّون

الأجيال
للترجمة والنشر

الطبعة الأولى
٢٠٠٧

العنوان الإلكتروني للناشر
info@al-ajyal.com

موقعنا على الإنترنت
www.al-ajyal.com



آرثر كونان دويل

وُلد آرثر كونان دويل لأسرة متوسطة الحال في إدنبرة في إسكتلندا في الثاني والعشرين من أيار (مايو) عام ١٨٥٩، والتحق بكلية الطب فيها وعمره سبعة عشر عاماً. وكان من مدرّسيه في الكلية الجرّاحُ الشهير الدكتور جوزيف بِلْ، وهو الذي أوحى إليه بشخصية شيرلوك هولمز التي ابتكرها بعد ذلك.

في عام ١٨٨٢ حصل دويل على شهادة الطب من جامعة إدنبرة، وكان يحلم بأن يصبح جرّاحاً وخبيراً في التشخيص مثل الدكتور بل، ولكن قلة المال اضطرته إلى العمل طبيباً على سفينة لصيد الحيتان.

بعد ذلك مارس مهنته في منزل صغير استأجره في بعض ضواحي بورتسماوث، ولكن عدد المرضى كان قليلاً فاتجه إلى الكتابة أملاً في الحصول على بعض الدخل الإضافي. وقد كتب بعضاً من قصص المغامرات لمجلاّت الفتيان، ولكن أجره عنها كان ضئيلاً، وفشلت روايته الأولى في العثور على ناشر.

وفي غمرة إحساسه باليأس فكّر في أساليب الدكتور بل في التشخيص وقرر أن يستخدمها في قصة يكون بطلها واحداً من رجال التحري؛ وهكذا وُلد شيرلوك هولمز في رواية «دراسة قرمزية» التي نشرها دويل سنة ١٨٨٧.

لقد ابتكر دويل شخصية تفيض بالحياة، حتى إن الجماهير رفضت أن تصدق أنها شخصية خيالية! وكان المؤلف يتلقى بانتظام خطابات موجَّهة إلى هولمز تطلب مساعدته في حل قضايا حقيقية، وبعض هذه القضايا أدى إلى كشف قدرة دويل نفسه.

كانت إحدى هذه الحوادث تتعلق برجل سحب كل أمواله من البنك وحجز غرفة في أحد فنادق لندن، ثم حضر حفلاً عاد بعده إلى فندقه حيث أبدل ملابسه ثم اختفى. وعجز رجال الشرطة عن اكتشاف مكانه، وخشيت أسرته أن يكون قد أصيب بسوء، لكن دويل حلّ المشكلة سريعاً إذ قال: "سوف تجدون رجلكم في

غلاسكو أو إدنبرة، وقد ذهب هناك بمحض إرادته. إن سحب كل أمواله من البنك يشير إلى الهروب المتعمَّد، والحفل الذي كان فيه ينتهي في الساعة الحادية عشرة، ولمّا كان قد أبدل ملابسه بعد عودته فلا بدّ أنه كان ينوي القيام برحلة، والقطارات السريعة المتجهة إلى إسكتلندا تغادر محطة كينغز كروس عند منتصف الليل". وقد عُثر على الرجل في إدنبرة فعلاً!

كان آرثر كونان دويل رياضياً متعدد المواهب، فقد مارس الملاكمة وكرة القدم والبولينغ والكريكت، وكان خطيباً مفوَّهاً ومحاضراً ناجحاً ومحاوراً بارعاً، وقد ذاعت آراؤه وأفكاره المتنوعة في الطب والعلم والأدب والسياسة والاجتماع.



وفي عام ١٩٠٠ تطوّع الدكتور دويل في حرب البُويِر (في جنوب إفريقيا) وصار كبيراً للجرّاحين في واحد من المستشفيات الميدانية، وفي نهاية الحرب مُنح وسام الفروسية ولقب «سير» تقديراً لخدماته. وقد أصدر بعد عودته

إلى إنكلترا كتاباً مهماً عن هذه الحرب.

وتوفي السير آرثر كونان دويل في السابع من تموز (يوليو) عام ١٩٣٠ بعد أن بلغ الحادية والسبعين، بعد ثلاث سنوات من كتابة آخر قصصه عن شيرلوك هولمز وبعد مرور أكثر من أربعين عاماً على أول ظهور علني لهذه الشخصية الخارقة.

* * *



شيرلوك هولمز وعالَمه

ربما كان شيرلوك هولمز أشهرَ الشخصيات الخيالية في التاريخ، بل إنه يكاد يفوق في شهرته كثيراً من مشاهير العالم الحقيقيين. وقد بلغ من شهرة هذه الشخصية أنها فاقت شهرةَ مبتكرها، آرثر كونان دويل.

استوحى دويل شخصية هولمز وصفاته من الدكتور جوزيف بِلْ الذي درّسه في كلية الطب. كان الدكتور بِلْ يتمتع بموهبة عظيمة في الملاحظة وأسلوب التفكير المنطقي، وكان يثير اهتمام تلاميذه بقدراته الاستنتاجية الفذة، فهو لم يكن ماهراً فقط في التعرف على علل المرضى، بل وفي معرفة شخصياتهم ومِهَنهم وتفصيلات خفية عنهم أيضاً. كان يقول لأحد المرضى مثلاً: "أنت ضابط سُرِّح من الجيش حديثاً، وقد عدتَ لتوّك من بربادوس، وأنت تعاني من داء الفيل". وبعد أن تسيطر الدهشة على المريض والطلبة

على السواء يشرح الدكتور بل الأمر قائلاً إن الرجل يبدو جندياً من هيئته، وعدم خلع قبعته عند دخوله الغرفة يدل على أنه ترك الخدمة حديثاً، وهو يملك مظاهر السلطة كتلك التي توجد لدى الضباط، وتدل بشرته التي لوّحتها الشمس والمرض الذي يشكو منه على أنه جاء من منطقة استوائية، وقد جاء من بربادوس لأن هذا المرض بالذات منتشر هناك!

«وُلد» شيرلوك هولمز -في عالَمه الخيالي- سنة ١٨٥٤ وحصل على شهادة جامعية لم يحدّدها دويل، ثم احترف مهنة «محقق خاص» منذ نحو سنة ١٨٧٨،



وكان يقيم في شارع بيكر في العاصمة البريطانية لندن، ورقم البيت الذي يقيم فيه هو «٢٢١ب». وقد لا نبالغ إذا قلنا إن هذا العنوان (٢٢١ب شارع بيكر) هو أشهر عنوان في العصر الحديث! وقد برع هولمز في كشف الجرائم وحل الألغاز الغامضة بفضل دقة ملاحظته وقدرته العظيمة على الاستنتاج والتحليل المنطقي، بالإضافة إلى غزارة معلوماته واطّلاعه الواسع على العلوم المختلفة.

أما الدكتور واطسون، صديق هولمز ومساعده الذي يرافقه في قصصه كلها، فلا يكاد يقل شهرة عن هولمز نفسه، وهو رَاوِية القصص الذي يقصّها علينا (كما فعل بعد ذلك هيستنغز في كثير من مغامرات بوارو). وهو طبيب وُلد نحو سنة ١٨٥٢ وتخرج طبيباً سنة ١٨٧٨، ثم انضم إلى الجيش سنة ١٨٨٠ وأمضى مدة خدمته في أفغانستان مع الجيش البريطاني، ثم عاد إلى بلده وتقاعد من الجيش بعدما أصيب في إحدى المعارك، وعندها تعرف إلى شيرلوك هولمز في مختبر الكيمياء بمستشفى ستامفورد في أوائل سنة ١٨٨١، ولم يفترق الصديقان بعد ذلك قط. وقد تزوج الدكتور واطسون في أواخر سنة ١٨٨٦، لكن دويل لم يشأ أن يعرّفنا إلى زوجته ولم يذكر لنا اسمها.

في قصة «المشكلة الأخيرة» التي نُشرت في نهاية

عام ١٨٩٣ «قتل» دويل بطله شيرلوك هولمز، لكنه واجه احتجاجاً عارماً من جماهير القراء فقرر إعادة إحياء هذه الشخصية الخيالية من جديد، فعاد هولمز إلى الظهور مرة أخرى في أواخر عام ١٩٠٣ ليستأنف حل القضايا الغامضة.

* * *



قصص شيرلوك هولمز

أول قصة نشرها دويل كانت في عام ١٨٧٩، وهي قصة قصيرة عنوانها «إفادة السيد جِفْسون»، أما أول رواية نشرها من بطولة شيرلوك هولمز فكانت «دراسة قرمزية»، وقد صدرت في بريطانيا عام ١٨٨٧ فلم يَكَد يُحِسّ بها أحد، لكنها حققت نجاحاً معتدلاً في الولايات المتحدة. وبعدها نشر رواية طويلة ثانية من بطولة شيرلوك هولمز، وهي رواية «علامة الأربعة» التي نُشرت عام ١٨٩٠ فوطّدت شخصيةَ هولمز في بريطانيا وأمريكا على السواء.

وفي السنة التالية (١٨٩١) بدأ نشر مجموعة «مغامرات شيرلوك هولمز» في حلقات شهرية في مجلة «ستراند»، بدءاً بقصة «فضيحة في بوهيميا» التي ظهرت في عدد تموز (يوليو)، فقوبلت هذه القصص بنجاح كبير غير مسبوق في تاريخ الصحافة البريطانية، ودخلت هذه الشخصية الخيالية التاريخَ من بابه الواسع، حيث صارت حديثَ المجتمع وشغلَ الناس في أنحاء البلاد.

وقد بلغ عدد قصص هذه السلسلة اثنتَي عشرة نُشر آخرها في عدد حزيران (يونيو) من عام ١٨٩٢. ثم ظهرت سلسلة «ذكريات شيرلوك هولمز» التي نُشرت في اثنتَي عشرة حلقة أيضاً صدر أولها في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٢، ويبدو أن دويل بدأ يملّ عندئذ من كتابة قصص شيرلوك هولمز، ولذلك «قتله» في آخر قصة من هذه المجموعة في معركة مع البروفسور موريارتي الشرّير عند شلالات رايشِنْباخ في سويسرا! وقد نُشرت هذه القصة (وعنوانها «المشكلة الأخيرة») في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٩٣.

وثار جمهور دويل غضباً وانهالت عليه ألوف الخطابات تستنكر عمله وخسرت المجلة عشرين ألف اشتراك، ولكن دويل تمسّك بموقفه، فقد شعر بأن شيرلوك هولمز يحول بينه وبين أعمال أكثر أهمية. ثم وافق أخيراً بسبب الإلحاح الذي لم ينقطع على «بعث» شيرلوك هولمز، فأعاده إلى العمل في قصة «مغامرة المنزل الخالي» التي نُشرت في مجلة «ستراند» في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٠٣.

وعاد شيرلوك هولمز إلى الأضواء من جديد؛ فقد تبيّن أنه لم يُقتَل على الإطلاق، وفي تلك القصة (المنزل الخالي) شرح دويل كيف نجا هولمز من الموت بأعجوبة، ثم شقّ طريقه بعد ذلك إلى بلاد

التبّت لمساعدة اللاما الكبير، ثم عاد إلى لندن ليحقق في وفاة ابن أحد اللوردات بطريقة غامضة. وقد أثارت عودة شيرلوك هولمز في مجلة «ستراند» في بريطانيا ومجلة «كوليرْز» في أمريكا حماسة بالغة في نفوس عشّاقه المخلَصين وحققت للمجلتين مبيعات غير مسبوقة. واستمر نشر سلسلة «عودة شيرلوك هولمز» (التي بلغ عدد حلقاتها ثلاث عشرة حلقة) حتى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٤.

وكان دويل قد نشر قبل هذه السلسلة روايةَ شيرلوك هولمز الطويلة الثالثة «كلب عائلة باسكرفيل»، وقد استمر نشر حلقاتها من آب (أغسطس) ١٩٠١ إلى نيسان (أبريل) ١٩٠٢، وهي أشهر روايات شيرلوك هولمز على الإطلاق.

وبعدها صدرت سلسلة «الظهور الأخير» التي تضم سبع قصص نُشرت على حلقات متباعدة بين أيلول (سبتمبر) ١٩٠٨ وكانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣، ثم الرواية الطويلة الرابعة «وادي الرعب» (١٩١٤/٩-١٩١٥/٥)، وهي أعظم روايات شيرلوك هولمز كما يقول النقّاد. وأخيراً سلسلة «قضايا شيرلوك هولمز» (١٩٢١/١٠-١٩٢٧/٤) التي نُشرت آخر حلقاتها بعد أربعين سنة تماماً من صدور أولى روايات شيرلوك هولمز.

ولم تقتصر مؤلفات آرثر كونان دويل على قصص وروايات شيرلوك هولمز، فقد ألّف كتباً كثيرة غيرها، منها روايات تاريخية ورومنسية ومسرحيات، بالإضافة إلى عدد كبير من الكتب والدراسات الغير الروائية.

والحقيقة أنه كان كاتباً غزير الإنتاج، فقد بلغ ما تركه من المؤلفات نحو مئة وستين، منها ستّون من قصص وروايات شيرلوك هولمز، وخمس روايات من بطولة شخصية خيالية أخرى ابتكرها هي شخصية عالِم اسمه البروفيسور تشالنجر، وأشهر هذه الروايات هي «العالَم المفقود»، ونحو أربعين رواية من الروايات المتنوعة، بالإضافة إلى عشر مسرحيات، وأربعة دواوين شعرية، وأكثر من خمسين كتاباً وكتيّباً في الشؤون الاجتماعية والسياسية والعسكرية، وكتاب ذكرياته الجميل الذي سمّاه «ذكريات ومغامرات».

* * *



رسّام شيرلوك هولمز الأشهر

تعاقب على رسم شخصية شيرلوك هولمز عددٌ من الرسّامين، لكن أشهرهم وأعظمهم -بلا خلاف- كان الرسام الإنكليزي سدني باجيت الذي صاحَبَ روايات هولمز وقصصَه منذ ولادتها المبكرة، وهو الذي بَلْوَر صورة شيرلوك هولمز وطَبَعَها في عيون القراء على مدار السنين.

والغريب أن المجلة لم تسعَ ابتداءً خلف سدني باجيت بل خلف أخيه الأكبر ولتر الذي كان قد نجح في رسم رسومات قصّتَي «جزيرة الكنز» و«روبنسون كروزو»، لكن خطأً في الاتصالات تسبب في دعوة سدني، الأخ الأصغر، لرسم صور القصص الستّ

فضيحة في بوهيميا

الأولى التي نشرتها مجلة «ستراند» في النصف الثاني من عام ١٨٩١، وعلى إثر النجاح الهائل الذي لقيَته هذه القصص مع رسوماتها التصق سدني باجيت بآرثر كونان دويل لتصبح رسومات هذا بنفس أهمية كتابة ذاك في عالم شيرلوك هولمز. وقد استمر سدني باجيت برسم الصور لقصص وروايات شيرلوك هولمز حتى وفاته عام ١٩٠٨، وبلغ عدد ما رسمه خلال هذه السنوات ٣٥٧ رسماً زيّنت ٣٨ قصة.

وحين توفي سدني استعانت مجلة «ستراند» برسّامين آخرين، فشارك في رسم السلسة الجديدة «الظهور الأخير» كل من ولتر باجيت، الأخ الأكبر لسدني، وآرثر تويدل وجلبرت هاليدي وأليك بول وجوزف سمبسون. أما السلسلة الأخيرة -وهي «قضايا شيرلوك هولمز»- فقد رسمها ثلاثة من الرسامين هم أ. جلبرت وهاوارد إلكوك وفرانك وايلز.

هذا في نسخة هولمز البريطانية التي نشرتها مجلة «ستراند»، أما في أمريكا فقد استعانت مجلة «كوليِرْز» بعدد من الرسامين أشهرهم فردريك دور ستيل، ومنهم و هـ هايد وجوزف فريدرتش ورتشارد غوتشمت.

* * *

كان هولمز يسمّيها دائماً «المرأة»، ولم أسمعه يذكرها بأي لقب آخر إلاّ نادراً، فقد كانت بنظره السيدة التي تتفوق على سائر النساء.

ولم يكن ذلك ليَعني أنه يشعر نحو أيرين آدلر بأيّ مشاعر تقترب من الحب، فعقله القاسي الدقيق ينفر من كل المشاعر، ومن الحب على وجه الخصوص، وإن كان متوازناً بشكل يدعو إلى الإعجاب. لقد كان -حسبما أرى- أعظم آلة شهدها العالَم في الاستنتاج والتحليل المنطقي، ولكن لم يكُن له مكان بين العشّاق، فما كان ليتحدّث عن المشاعر الرقيقة إلا بالسخرية والتهكّم!

إن مثل هذه المشاعر ذاتُ نفع للباحث المراقب لأنها تساعده في كشف الستار عن دوافع الإنسان وأفعاله، لكن لو سمح صاحب العقل المنهجي المدرَّب لمشاعر كهذه بالتأثير فيه فسوف تصبح كل نتائجه المنطقية عرضة للشك، وهو لو وجد حبة رمل في إحدى آلاته الحسّاسة أو عثر على خدش في إحدى عدساته القوية فلن يزعجه أيٌّ من ذلك كما تزعجه عاطفة قوية يشعر بها!

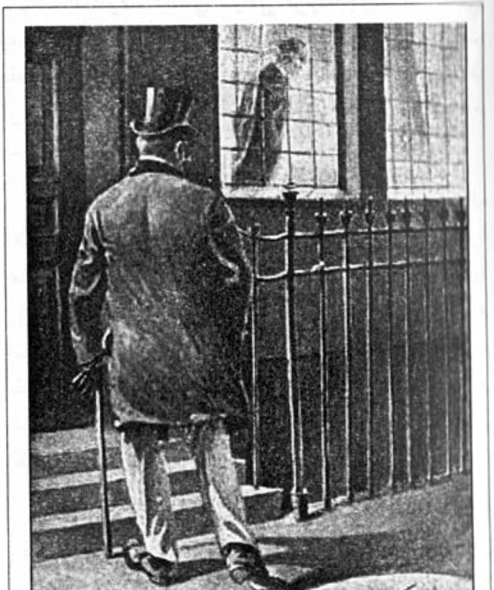
وبالرغم من ذلك كله فإن شيرلوك هولمز لم يُعجَب قط بأي امرأة في حياته كلها، باستثناء امرأة واحدة هي أيرين آدلر ذات الذكرى الغامضة.

* * *

تسبّب زواجي في ابتعادي عن هولمز بحيث لم أرَه في الفترة الأخيرة إلاّ قليلاً، فالسعادة التي تغمر الشخص الذي يجد نفسه لأول مرة سيداً لمنزله الخاص والاهتمامات البيتية الجديدة كانت كافية لتستهلك كل اهتمامي، في حين بقي هولمز (الذي تنفر شخصيته من كل شكل من أشكال العلاقات الاجتماعية) في مسكننا القديم بشارع بيكر، غارقاً بين كتبه القديمة ومتأرجحاً -من أسبوع إلى آخر- بين الخمول والكسل تارة وطبيعته الحادة التي تتفجّر بالطاقة تارة أخرى.

كان ما يزال -كعادته- مهتمّاً بشدّة بدراسة الجريمة ومشغولاً بقدراته الهائلة وقوّة ملاحظته الغير العاديّة في تتبّع تلك القضايا الغامضة التي تخلّت عنها الشرطة الرسمية واعتبرتها قضايا ميؤوساً منها، وكنت أسمع من حين إلى آخر بعض الروايات المبهَمة التي تتحدث عمّا يفعله، فقد سمعت عن استدعائه إلى أوديسّا في قضية قتل تريبوف، وعن حلّه قضية قتل الإخوة آتكينسون الغريبة في ترينكومالي، وأخيراً

عن المهمة التي أنجزها بدقّة ونجاح للعائلة المالكة في هولندا. إلا أنني لم أعرف عن صديقي القديم شيئاً غير هذه الأنشطة التي قرأت عنها في الصحافة اليومية مثل باقي القرّاء.



رسم جوزف فريدرتش ١٩٠٦ Josef Friedrich 1906

وفي إحدى الليالي، في العشرين من شهر آذار (مارس) عام ١٨٨٨، كنت عائداً من زيارة لأحد المرضى (حيث عدت إلى العمل في عيادة مدنية) عندما قادني طريقي عبر شارع بيكر، وحين مررت بالباب المألوف -الذي سيظلّ مرتبطاً دائماً في ذهني بفترة ما قبل الزواج وبالحوادث الغامضة التي أحاطت بقضيّة الخيط القرمزي- انتابتني رغبة شديدة في أن أرى شيرلوك هولمز من جديد وأعرف كيف يستخدم قدراته الاستثنائية.

كان مسكنه مضاء، حتى إنني رأيت الخيال الأسود لهيئته النحيلة الطويلة يمرّ مرتين خلف الستارة عندما نظرت إلى الأعلى. لقد كان يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً بسرعة وحماسة عاقداً يديه خلف ظهره ورأسُه منحنٍ على صدره، ولأنني أعرف كل طباعه وعاداته فقد كان لحالته وتصرفاته معنى خاصّ؛ لقد قدّرت أنه بدأ بالعمل مرة ثانية وانطلق بحماسة خلف أثر لإحدى القضايا الجديدة.

قرعت الجرس ففتحت لي البابَ صاحبةُ البيت وقادتني إلى الغرفة التي كانت غرفتي فيما مضى. ولم يستقبلني هولمز بمشاعر فيّاضة، فهو نادراً ما يُظهِر مشاعره، ولكنه كان سعيداً برؤيتي على ما أعتقد، فمن غير أي كلام يُذكَر -وإن ظهر الودّ في عينيه- أشار

إليّ لأجلس على كرسي مريح، وبعد ذلك وقف أمام النار وأخذ يتفحصني بطريقته الفريدة.

علّق قائلاً: الزواج يناسبك يا واطسون؛ أعتقد أن وزنك قد زاد ثلاثة كيلوغرامات وربع كيلوغرام منذ رأيتك آخر مرة.



رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

أجبته قائلاً: بل ثلاثة فقط.

- حقاً؟ أظن أن وزنك قد زاد أكثر من ذلك قليلاً، قليلاً جدّاً كما أتخيّل يا واطسون، وألاحظ أنك قد عدت إلى العمل ثانية. أنت لم تخبرني بنيّتك في العودة إلى العمل.

- كيف عرفت إذن؟

- لقد رأيت ذلك؛ استنتجته بنفس الطريقة التي عرفت بها أنك قد تعرّضت مؤخّراً إلى البلل الشديد وأن عندك خادمة مهملة خرقاء.

قلت: عزيزي هولمز! هذا أكثر من اللاّزم، ولو كنت تعيش منذ عدّة قرون لكانوا أعدموك حرقاً بالتأكيد! إنها الحقيقة، لقد كنت أتمشّى في الريف يوم الخميس وعدت إلى المنزل في حالة مزرية، ولكن لا أستطيع أن أتصوّر كيف استنتجت ذلك.وقد استبدلت ملابسي! أمّا بالنسبة إلى ماري جان فهي غير قابلة للإصلاح، وقد أعطتها زوجتي إنذاراً بترك العمل... وإن كنت لا أعرف أيضاً كيف استنتجت هذا الأمر!

ضحك بصوت خافت وهو يفرك يديه ثم قال: الأمر في غاية البساطة، فعيناي تخبرانني أن جلد الجزء الداخلي من فردة حذائك اليسرى -في المكان الذي تضيئه نار المدفأة تماماً- مخدوش بستة خدوش

متوازية تقريباً، ومن الواضح أن مَن تسبب بها كان يحكّ بإهمال شديد حول حوافّ النعل لكي يزيل الطين الجافّ العالق بها. وهكذا ترى كيف توصلت إلى استنتاجي المزدوج بأنك خرجت في جوّ رديء وأن عندك نموذجاً شديد السوء من خدم لندن. أمّا العيادة فعندما يدخل مسكني شخصٌ محترَم تفوح منه رائحة المطهّر وعلى سبّابته اليمنى علامة سوداء من أثر نترات الفضّة، كما يوجَد بروز على الجانب الأيمن من قبعته الرسمية يُظهر المكان الذي يخفي فيه سمّاعته، فيجب عليّ أن أكون غبيّاً إذا لم أقطع بأنه عضو فعّال في مهنة الطب.

لم أستطع أن أمنع نفسي من الضحك بسبب السهولة التي شرح بها طريقة توصّله إلى الاستنتاج، وعلّقت قائلاً: عندما أسمع حججك تبدو لي الأمور دائماً في غاية البساطة وكأنني أستطيع القيام بها بنفسي، بالرغم من وقوفي حائراً أمام كل مرحلة من مراحل تحليلك المنطقي-المتتابعة حتى تقوم أنت بشرح طريقتك. ومع ذلك فأنا أعتقد أن عينَيّ بنفس قوة عينيك.

أجاب وهو يلقي بنفسه على أحد الكراسي المريحة: تماماً؛ أنت ترى، لكنك لا تنتبه لما تراه. والفرق واضح، فأنت رأيت -على سبيل المثال-

الدرجات التي تقود من القاعة إلى هذه الغرفة.

- بصفة متكررة.

- كم مرة تقريباً.

- حسناً، عدّة مئات من المرات.

- وكم عددها؟

- كم عددها؟! لا أعرف!

- تماماً، فأنت لم تنتبه وإن كنت رأيت، وهذا يوضّح ما أقصده تماماً. أما أنا فأعرف أن هناك سبع عشرة درجة لأنني رأيت وانتبهت في الوقت نفسه. بالمناسبة، ما دمتَ مهتمّاً بتلك القضايا البسيطة وحيث إنك كنت طيّباً بما فيه الكفاية وسجّلت واحدة أو اثنتين من خبراتي المتواضعة، فقد تكون مهتمّاً بهذه القضيّة.

ثم أخذ عن الطاولة ورقة سميكة ورديّة اللون وقدمها إليّ قائلاً: لقد وصلتني هذه الرسالة بالبريد قبل قليل، اقرأها بصوت عالٍ.

لم تكُن الرسالة القصيرة مؤرَّخة كما أنها لم تكُن موقَّعة وليس عليها عنوان، وكان فيها:

توقَّعْ الليلةَ زيارة في الساعة الثامنة إلاّ ربعاً.

سيد محترَم يودّ استشارتك في أمر من الأمور الشديدة السرّية، فالخدمات التي قدّمتَها لإحدى العائلات المالكة في أوروبا أظهرت أن من الممكن ائتمانك على الأمور ذات الأهمية الشديدة بلا خوف، فكُن إذن في مسكنك في تلك الساعة ولا تنزعج إذا ارتدى زائرك قناعاً.

علّقت قائلاً: إنه لغز حقاً! ما معنى هذه الرسالة في تصوّرك؟

- ليست لديّ أي معلومات حتى الآن. ومن الخطأ أن نضع النظريات قبل أن نحصل على المعلومات، فعندها نقوم لاشعورياً بِلَيّ الحقائق لتتناسب مع النظريات بدلاً من العكس. ولكن ماذا عن الرسالة بحدّ ذاتها؟ ما الذي تستنتجه منها؟

فحصت الخطّ بعناية وكذلك صنعت بالورقة التي كُتبت الرسالة عليها، ثم علّقت قائلاً وأنا أحاول تقليد الطريقة التي يتبعها رفيقي: الحالة الماديّة للرجل الذي كتبها جيّدة على ما يبدو، فمثل هذا الورق لا يمكن شراؤه بأقل من نصف كراون للرزمة. إنه ورق متين وصلب بشكل غريب.

قال هولمز: «بشكل غريب»... إنه الوصف المطلوب تماماً، فهذا ليس ورقاً إنكليزياً على الإطلاق. ارفعه إلى أعلى ناحية الضوء.

فعلت ذلك فرأيت حرفَي غَيْن وياء في جهة من الورقة وحرفَي أَلِف وغَيْن في جهة أخرى، وكانت تلك الحروف مرسومة داخل مادّة الورق.

سأل هولمز قائلاً: ماذا تفهم من ذلك؟

- إنه اسم صانع الورق بلا شكّ، أو بالأحرى الحروف المميّزة لاسمه.



رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

- لا، على الإطلاق. إن حرفَي الغين والياء يرمزان إلى كلمة «غيزيلزْشافت» الألمانية، ومعناها «شركة»، وهو اختصار معروف. أمّا بالنسبة إلى حرفَي الألف والغين فدعنا نبحث في الأطلس الجغرافي لبلدان أوروبا.

ثم أنزل عن أحد رفوفه مجلّداً بنّياً كبيراً وقال



رسم هاوراد إلكوك ١٩٢٤ Howard Elcock 1924

وهو يقرأ فيه: إغلو، إغلونيتز... ها هي: إغريا. إنها إحدى المقاطعات الناطقة بالألمانية، وهي تقع في بوهيميا «قريباً من كارلْسباد المعروفة بأن فيها العديد من مصانع الزجاج ومعامل صناعة الورق» كما يقول الكتاب. حسناً، ما الذي تفهمه من ذلك؟

ولمعت عيناه بانتصار في حين قلت: هذا الورق مصنوع في بوهيميا.

- تماماً، كما أن الرجل الذي كتب الرسالة ألماني. ألا تلاحظ غرابة تركيب جمله؟ لو كان فرنسياً مثلاً لما كتبها بهذه الطريقة، فالألماني فقط هو من يكتب بهذه الفظاظة. وهكذا يبقى أن نكتشف ما الذي يريده هذا الألماني الذي يكتب على ورق مصنوع في بوهيميا ويفضّل عدم إظهار وجهه وارتداء قناع؟ آه، ها هو قد حضر -إن لم أكن مُخطئاً- ليبدّد حيرتنا.

فبينما كان هولمز يتم جملته سمعنا دبيب حوافر الأحصنة وصرير عجلات تتوقّف، ثم تبع ذلك قرعٌ عنيف للجرس، فصفر هولمز وقال: اثنان، حسبما يشير الصوت.

ثم أكمل وهو ينظر من النافذة: نعم، عربة صغيرة لطيفة يجرها اثنان من الأحصنة الأصيلة ثمن الواحد منهما مئة وخمسون جنيهاً! في هذه القضيّة مال يا واطسون... حتى لو لم يكن فيها أي شيء آخر.

- أظن أن من الأفضل أن أذهب يا هولمز.

- على الإطلاق يا دكتور، بل ابقَ حيث أنت، فأنا ضائع إن لم تبقَ هنا لتسجّل سيرتي، وهذه القضيّة تبشر بأنها ستكون مثيرة للاهتمام وسوف يكون من المؤسف أن لا تحضرها.

- ولكن عميلك...

- لا تُعِره بالاً، فقد أحتاج إليك، وقد يحتاج هو أيضاً إليك. ها قد جاء، اجلس على ذلك الكرسي المريح يا دكتور وانتبه لما سنقوله جيّداً.

سمعنا خطوات ثقيلة بطيئة تصعد الدرَج ثم تمشي في الرواق لتقف فجأة خارج الباب، وبعد ذلك سمعنا طرقة عالية حازمة فقال هولمز: ادخل.

دخل رجل لا يقلّ طوله عن مئة وخمسة وتسعين سنتمتراً وله بنيان وجسم هرقل! كانت ملابسه فخمة، ولكنها فخامة قد يُنظَر إليها في إنكلترا على أن صاحبها ذو ذوق سيّء، فقد ارتدى معطفاً ثقيلاً في حين كانت العباءة ذات اللون الأزرق الداكن الملقاة على كتفيه مزيَّنة بخطوط من الحرير، وكان لونها كلون اللهب وقد ثُبّتت عند العنق بدبّوس يحتوي على حجر واحد من الزمرّد المتوهج، أمّا حذاؤه الطويل الذي امتدّ حتى منتصف قصبة ساقه والذي زُيِّن عند نهايته بفراء بنّي

فقد أكمل الانطباع بالغنى الذي يوحي به مظهره كله. كان يحمل في يده قبّعة عريضة ويغطي الجزءَ العلوي من وجهه بقناع أسود امتدّ حتى غطّى عظامَ وجنتيه،



رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

وكان من الواضح أنه قد وضعه في تلك اللحظة حيث كانت يده ما تزال مرفوعة نحوه عندما دخل، وقد بدا من الجزء السفلي من وجهه أنه رجل ذو شخصية قويّة وله شفة غليظة وذقن طويل يوحي بإصرار يصل إلى درجة العناد.

سأل بلَكْنة ألمانية مميّزة جدّاً وبصوت أجشّ منخفض قائلاً: هل وصلتك رسالتي؟ لقد أخبرتك فيها بحضوري.

ثم أخذ ينقل النظر من أحدنا إلى الآخر كما لو كان غير متأكد إلى من يجب أن يوجّه حديثه، فقال هولمز: تفضّل بالجلوس. هذا صديقي وزميلي الدكتور واطسون الذي يتكرم بمساعدتي أحياناً في قضاياي. هل لي أن أعرف إلى مَن أتشرف بالتحدث؟

- يمكنك أن تخاطبني على أنني الكونْت فون كْرام، أحد نبلاء بوهيميا. أتصوّر أن هذا السيد المحترم، صديقك، هو رجل يتّصف بالشرف والتكتّم بحيث يمكنني ائتمانه على أمر في غاية الأهمية، ولو لم يكن الأمر كذلك فأنا أفضّل التحدّث إليك وحدك.

نهضت لأغادر، ولكن هولمز أمسك بمعصمي وأعادني إلى الكرسي قائلاً: كلانا أو لا أحد! يمكنك أن تقول أمام هذا السيد المحترَم كل ما يمكنك قوله أمامي.

هزّ الكونت كتفيه العريضتين وقال: إذن لا بدّ أن أبدأ بأن أُلزمكما بالكتمان التامّ لمدّة عامين، ففي نهاية هذه المدّة لن يكون للأمر أهمية، أمّا في الوقت الحاضر فليس من المبالغ به أن نقول إن له من الأهمية ما قد يؤثّر في تاريخ أوروبا كلها.

قال هولمز: أعدك.

وقلت: وأنا أيضاً.

استمرّ الزائر الغريب قائلاً: أرجو أن لا يضايقك ارتدائي هذا القناع، فالشخص العظيم الذي وظّفني يودّ أن يظلّ وكيله مجهولاً بالنسبة لك، ويجب أن أعترف لك في الحال بأن اللقب الذي سمّيتُ به نفسي الآن ليس اسمي في الحقيقة.

أجاب هولمز بجفاف: كنت مدركاً لذلك.

- إن الملابسات شديدة الحساسية، ولذلك يجب اتخاذ كافّة الاحتياطات حتى نوقف ما يمكن أن يتحول إلى فضيحة هائلة ويعرّض إحدى العائلات الحاكمة في أوروبا إلى التشهير. وبصراحة فإن الأمر يمسّ عائلة أورمشتاين العظيمة، العائلة الحاكمة في بوهيميا.

غمغم هولمز قائلاً وهو يسترخي في كرسيه المريح ويغمض عينيه: كنت مدركاً لذلك أيضاً.

نظر زائرنا بدهشة واضحة إلى الهيئة المتكاسلة الفاترة الهمّة للرجل الذي وُصف له -بلا شكّ- على أنه المحلّل الأكثر دقّة والمحقق الأكثر نشاطاً في أوروبا. فتح هولمز عينيه ثانية ونظر بنفاد صبر إلى عميله الضخم ثم علّق قائلاً: لو تكرمت جلالتك بعرض قضيّتك لتمكنت من تقديم النصح لك بشكل أفضل.



رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

هبّ الرجل واقفاً من كرسيه وأخذ يقطع الغرفة ذهاباً وإياباً بانفعال جامح، ثم نزع القناع عن وجهه بحركة يائسة وألقى به إلى الأرض وصاح قائلاً: أنت على حقّ... لماذا أحاول إخفاء الأمر؟

غمغم هولمز قائلاً: لماذا بالفعل؟ فقد أدركت قبل أن تتحدث بأنني أخاطب ويلهلم غوتسرائخ سيجسمونْد فون أورمشتائن، ملك بوهيميا والدوق الأعظم لكاسِل فيلشتاين.

قال زائرنا الغريب وهو يجلس مرة أخرى ويمرّر يده على جبهته الشامخة الشاحبة: يمكنك أن تفهم... يمكنك أن تفهم أنني لم أعتَد القيام بمثل هذه الأمور بنفسي. ولكن الأمر دقيق جدّاً، ولذلك لم أستطع أن آتمن عليه وكيلاً دون أن أضع نفسي تحت رحمته. وهكذا فقد جئت مستتراً من بْراغ بغرض استشارتك.

قال هولمز وهو يغمض عينيه ثانية: فلتستشِرني إذن.

- الوقائع باختصار هي أنه منذ نحو خمس سنوات خلال زيارة مطوَّلة في وارسو تعرّفت إلى مغامِرة معروفة اسمها أيرين آدلر... وهذا الاسم مألوف بالنسبة لك بلا شك.

غمغم هولمز دون أن يفتح عينيه: أرجو أن

تبحث عنها في الدليل الخاص بي يا دكتور.

لقد تبع هولمز لسنوات طويلة نظاماً لإدراج كل المقالات التي تتعلّق بالأشخاص والأشياء مما يجعل من الصعب ذكر اسم أو موضوع دون أن يتمكن من تقديم معلومات عنه في الحال، وفيما يتعلق بهذه الحالة فقد وجدت سيرتها محصورة بين سيرة أحد رجال الدين وسيرة ضابط بحري قام بكتابة بحث عن أسماك أعماق البحر.

قال هولمز: أرني. آه، نعم، لقد وُلدت عام ١٨٥٨، مغنية أوبرا، وهي المغنية الأولى في الأوبرا الملكية في وارسو، وقد اعتزلت المسرح الأوبرالي، وهي تعيش في لندن. حسناً، لقد تورطت جلالتك -كما أقدّر- مع هذه الشابّة وكتبت لها بعض الخطابات المثيرة للشبهة، وأنت الآن متلهف على استعادة هذه الخطابات.

- تماماً، ولكن كيف...؟

- هل تمّ زواج سري؟

- لا.

- هل في يدها أية أوراق أو شهادات رسمية؟

- لا.

- أنا عاجز عن فهم جلالتك إذن، فلو أبرزت الشابّة خطاباتها للابتزاز أو لأغراض أخرى فكيف ستثبت صحّتها؟

- من الخطّ.

- هراء، هراء، يمكن الطعن بأنه مزوَّر.

- كما أن الأوراق من مذكّرتي الشخصية.

- ستقول إنها مسروقة.

- وماذا عن ختمي الخاصّ.

- مقلَّد.

- وصورتي.

- تم شراؤها.

- لقد كنا معاً في الصورة.

- آه، يا إلهي! هذا سيّئ جدّاً! لقد ارتكبتَ حماقة كبيرة.

- كنت مجنوناً فاقداً للعقل.

- لقد عرّضت نفسك للشبهات بشكل خطير.

- كنت وليّاً للعهد فقط في ذلك الوقت. كنت صغيراً في السنّ، وأنا الآن في الثلاثين من عمري.

- يجب استعادتها.

- لقد حاولنا وفشلنا.

- يجب أن تدفع، فلا بدّ من شراء الصورة.

- إنها لن تبيع.

- فلتُسرَق إذن.

- لقد تمّت خمس محاولات، فقد قام لصوص استأجرتهم بتفتيش منزلها مرتين تفتيشاً دقيقاً، وقمنا مرة بالاستيلاء على أمتعتها عند سفرها، كما قُطع عليها الطريق مرتين، ولكن بلا فائدة.

- ألم تعثر لها على أثر؟

- لا أثر على الإطلاق.

ضحك هولمز وقال: يا لها من مشكلة بسيطة وظريفة!

ردّ عليه الدوق مؤنّباً: ولكنها في غاية الخطورة بالنسبة إليّ.

- غاية في الخطورة بالفعل، وما الذي تنوي هذه الشابّة أن تفعله بالصورة؟

- إنها تنوي تدميري.

- ولكن كيف؟

- أنا على وشك الزواج.

- هذا ما سمعته.

- سأتزوج كلوتيلد لوثمان فون ساكس مينِنْغن، وهي الابنة الثانية لملك إسكندنافيا. قد تكون مطّلعاً على التقاليد الصارمة لعائلتها، كما أنها تتميز بالرقّة الشديدة، ولذلك فلو أُلقيت ظلال من الشكّ حول تصرفاتي فلن يتمّ الزواج.

- وأيرين آدلر؟

- لقد هدّدت بإرسال الصور إلى هذه العائلة، وستفعل ذلك... أنا أعرف أنها ستفعل. أنت لا تعرفها، إنها تملك إرادة من حديد... إنها تملك وجه أجمل النساء وعقل أكثر الرجال تصميماً، وما دمت سأتزوج بامرأة أخرى فلا حدّ لِما يمكن أن تفعله... لا حدّ.

- وهل أنت متأكد أنها لم ترسلها بعد؟

- نعم، متأكد.

- لماذا؟

- لأنها قالت إنها سترسلها يوم يتمّ إعلان الخطوبة رسمياً، وسيكون ذلك يوم الإثنين المقبل.

قال هولمز وهو يتثاءب: حسناً، ما زالت أمامنا

ثلاثة أيام إذن. هذا من حسن الحظّ، فيجب أن أتقصّى عن أمر مهمّ أو اثنين في الوقت الحاضر. بالطبع جلالتك مقيم في لندن حالياً؟

- بالتأكيد، ستجدني في فندق لانغهام باسم الكونت فون كْرام.

- سأرسل إليك رسالة قصيرة لأطلعك على التطورات.

- أرجو أن تفعل ذلك، فسوف أكون في غاية القلق.

- حسناً، وبخصوص المال؟

- لك مطلَق الحرّية.

- بلا حدّ أقصى؟

- أؤكد لك أنني على استعداد للتنازل عن إحدى مقاطعاتي في سبيل الحصول على تلك الصورة!

- وماذا عن النفقات الحاليّة؟

أخرج الرجل من تحت عباءته حقيبة ثقيلة من الجلد فوضعها على الطاولة قائلاً: في الحقيبة ثلاثمئة جنيه ذهبي وسبعمئة جنيه ورقي.

حرّر هولمز إيصالاً على إحدى أوراق مفكّرته

وأعطاه له، ثم سأل قائلاً: وما عنوان الآنسة؟

- إنها تقيم في بيت اسمه «بريوني»، وهو في طريق سيربنتاين.

كتب هولمز العنوان ثم قال: بقي سؤال واحد؛ هل كانت الصورة صغيرة بحجم الجيب أم من الحجم الكبير؟

- بل من الحجم الكبير الذي يُعَدّ للتعليق على الجدار.

- حسناً، أتمنى لك ليلة سعيدة، وأنا واثق أننا سنحمل لك أخباراً سعيدة قريباً.

ثم قال لي: وليلة سعيدة لك أيضاً يا واطسون.

ثم أضاف قائلاً عندما انطلقت العربة الفاخرة في طريقها: لو تكرّمت بالحضور بعد ظهر يوم غد في الساعة الثالثة فسوف أناقش هذه القضيّة البسيطة معك.

* * *

كنت في شارع بيكر في الساعة الثالثة تماماً، ولكن لم يكُن هولمز قد عاد بعد، وأخبرتني مالكة المنزل أنه قد غادر بعد الثامنة صباحاً بقليل. جلست

بجوار النار على أية حال وفي نيّتي أن أنتظره مهما طال غيابه، فقد جذب تحقيقه اهتمامي بشدّة، فبالرغم من أنه لم يكن محاطاً بالعناصر الكئيبة والغريبة التي رافقت الجريمتين اللتين سجّلتهما من قبل إلاّ أن طبيعة القضيّة ومكانة عميله الرفيعة أكسبتا التحقيق سمة مميّزة. وبعيداً عن طبيعة التحقيق الذي يعمل فيه هولمز فأنا أجد في فهمه البارع للموقف وفي تحليله المنطقي الحاسم ما يجعلني أستمتع بدراسة أسلوبه في العمل وتتبُّع طرقه الدقيقة السريعة التي يستخدمها في حلّ القضايا الأكثر تعقيداً، وقد اعتدت على نجاحه الدائم حتى إن إمكانية تعرُّضه للفشل لم تعُد تخطر على بالي.

كانت الساعة قد قاربت الرابعة حين فُتح الباب ودخل سائس يترنّح كالمخمور، وقد كان وجهه أحمر وملابسه مشينة وشعره مشعّثاً. وبالرغم من أنني معتاد على قدرات صديقي المذهلة في استخدام التنكّر إلاّ أنني اضطُررت إلى النظر ثلاث مرات قبل أن أتأكد من أنه هو بالفعل!

أومأ لي ثم اختفى داخل غرفة النوم، وبعد خمس دقائق خرج من الغرفة وهو يرتدي حُلّة نظيفة وشكله جدير بالاحترام كعادته. وضع هولمز يديه في جيبيه ومدّ ساقَيه أمام النار، ثم أخذ يضحك بحرارة

لبضع دقائق، وأخيراً صاح قائلاً: جيد... الأمر جيد حقاً.

ثم غصّ وأخذ يضحك ثانية حتى اضطُرّ إلى الاستلقاء في كرسيه وهو منهك، فسألته: ما الأمر؟



رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

- الأمر مضحك جدّاً. أنا متأكد أنك لن تستطيع تخمين الطريقة التي قضيت بها صباحي ولا ما فعلت في النهاية.

- لا أستطيع التخيّل، فأنا أفترض أنك كنت تراقب عادات الآنسة أيرين آدلر وربما منزلها.

قال: تماماً، ولكن النتيجة كانت غير عاديّة. سأخبرك بالأمر على أية حال. لقد غادرت المنزل بعد الساعة الثامنة من صباح هذا اليوم بقليل وأنا متنكر بشخصية سائس عاطل عن العمل، فالذين يعملون بالخيول ينشأ بينهم تعاطف رائع ومشاركة وجدانية، وحين تتنكر في هيئة واحد منهم فسوف تعرف كل ما تريد معرفته. وجدت بيت بريوني بسهولة، وهو دارة صغيرة لها حديقة خلفية، أما في المقدّمة فطابقان مبنيان على الطريق مباشرة، وعلى الباب قفل ضخم، وعلى اليمين غرفة جلوس واسعة مفروشة بعناية ذات نوافذ طويلة تكاد تصل إلى الأرض ومقابضها من النوع الإنكليزي السخيف الذي يستطيع حتى الطفل فتحه! لم يكن في الجهة الخلفية ما يستحقّ الملاحظة عدا الطريق الذي يمكن دخول النافذة من خلاله والذي يقع فوق حظيرة العربة، وقد سرت حول المكان وفحصته عن قرب من كل الاتجاهات دون أن ألاحظ شيئاً آخر ذا أهمية. ثم مشيت متسكعاً

حتى نهاية الشارع فوجدت -كما توقعت- مجموعة من الإسطبلات في ممر يمتدّ على طول أحد جدران الحديقة، وقمت بمساعدة سائسي الخيل في تنظيف خيولهم فحصلت -بالمقابل- على بنسين وحشوتين من التبغ الخشن، بالإضافة إلى كل ما أريده من معلومات عن الآنسة آدلر... هذا بغضّ النظر عن السيرة الذاتية لنصف دستة من الأشخاص المقيمين في الجوار والتي اضطُررت إلى الاستماع إليها بالرغم من أنها لا تهمّني على الإطلاق.

سألته قائلاً: وماذا عن أيرين آدلر؟

قال: آه، لقد قلبَت حال الرجال رأساً على عقب في تلك الأنحاء! إنها المرأة الأجمل في هذه المدينة كما يبدو... هذا ما يُجمع عليه كل من في إسطبلات سيربنتاين بلا استثناء، وهي تعيش بهدوء وتغنّي في الحفلات الموسيقية حيث تغادر المنزل كل يوم في الخامسة وتعود في السابعة تماماً لتناول العشاء، ومن النادر أن تخرج في أي وقت آخر إلاّ عندما تغنّي. لا يزورها من الرجال غير شخص واحد، ولكنه يزورها كثيراً، وهو أسمر اللون وسيم شديد الجاذبية ويقوم بزيارتها مرة كل يوم على الأقل ومرتين في أغلب الأحيان، واسمه السيد غودفري نورتون من إنِرْتِمْبِل. أترى فائدة أن تصادق سائقي عربات الأجرة؟

لقد أوصلوه من إسطبلات سيربنتاين إلى منزله مرات عديدة فعرفوا عنه كل شيء. وبعد أن استمعت إلى كل ما لديهم من أخبار بدأت أمشي ذهاباً وإياباً بالقرب من «بريوني» مرة أخرى لأتدبّر خطّة حملتي.

وسكت هولمز قليلاً ثم تابع قائلاً: كان من الواضح أن ذلك الشخص، غودفري نورتون، عنصر مهم في المسألة. كان محامياً، وقد بدا ذلك نذير شرّ، فما العلاقة بينهما؟ وما الغرض من زياراته المتكررة؟ أهي عميلة عنده أم هي صديقته؟ إذا كان الافتراض الأول صحيحاً فمن المحتمَل أن تكون قد أعطته الصورة ليحتفظ بها عنده، أما لو كان الأخير فالاحتمال ضعيف، وسوف تحدّد إجابةُ هذا السؤال ما إذا كنت سأستمرّ في العمل بالقرب من «بريوني» أو سأوجّه اهتمامي إلى بيت نورتون في إنرتمبل... لقد كانت نقطة دقيقة تسببت في اتساع مجال تحقيقي. أخشى أنني قد أضجرتك بهذه التفصيلات، ولكن لا بدّ أن أوضح لك الصعوبات الصغيرة التي أواجهها حتى تفهم الموقف.

أجبته قائلاً: أنا أتابع ما تقوله بانتباه شديد.

استطرد قائلاً: كنت ما أزال أوازن الأمر في عقلي حين سارت عربة أجرة صغيرة بسرعة حتى وصلت إلى مسكن بريوني وقفز منها سيد محترَم. كان وسيماً

بشكل ملحوظ وأسمر اللون، ومن الواضح أنه الرجل الذي سمعت عنه. بدا أنه على عجلة من أمره حيث صاح آمراً سائق العربة أن ينتظره ثم اندفع متخطياً الخادمة التي فتحت له الباب مما أعطى انطباعاً بأنه يذهب إلى المنزل كثيراً.

مكث في المنزل نحو نصف ساعة، واستطعت أن ألمحه من خلال نوافذ غرفة الجلوس وهو يمشي ذهاباً وإياباً ويتكلم بانفعال ويلوّح بذراعيه، أما هي فلم أستطع رؤيتها. ثم خرج بعد وقت قصير وقد بدا عليه الاضطراب أكثر من ذي قبل، فصعد إلى العربة، ثم نظر باهتمام إلى الساعة الذهبية التي سحبها من جيبه وصاح: قُدْ بأقصى سرعة... سنذهب أولاً إلى محل غروس وهانكي في شارع ريجنت ثم بعد ذلك إلى كنيسة سينت مونيكا في طريق إدجْوير، وسأعطيك نصف جنيه لو استطعت القيام بذلك كله في عشرين دقيقة.

انطلقت العربة، وفيما كنت أتساءل: أيكون من الأفضل أن أتبعه أو لا أفعل؟ جاءت من أعلى الطريق عربة أنيقة ذات سقف متحرك وقد زرّر سائقها معطفه إلى وسطه فقط ولف وشاحه تحت أذنيه. لم تكَد العربة تتوقف حتى اندفعت السيدة من باب البيت ودخلتها، فلم أرَ منها في تلك اللحظة إلا لمحة سريعة، ولكنها

كانت امرأة فاتنة ولها وجه قد يضحّي الرجل من أجله بحياته! صاحت قائلة: إلى كنيسة سينت مونيكا يا جون، وسأعطيك نصف جنيه ذهبياً إن استطعت الوصول خلال عشرين دقيقة.

كانت فرصة لا تعوَّض يا واطسون، وكنت أوازن بين ما إذا كان عليّ أن أنتهزها وأدخل إلى البيت أو أن أتعلق بعربة السيدة من الخلف، وعندئذ اقتربَت عربة أجرة قادمة من الطرف الآخر من الشارع. تردّد السائق عندما رأى مثل هذا المسافر الرثّ الهيئة، ولكنني قفزت إلى داخل العربة دون أن أتيح له فرصة للاعتراض وقلت: كنيسة سينت مونيكا، ولك نصف جنيه ذهبي إذا استطعت الوصول في عشرين دقيقة!

كانت خمسٌ وعشرون دقيقة تفصلنا عن الثانية عشرة، وبالطبع كان ما يحدث واضحاً بما فيه الكفاية. قاد سائقي العربةَ بسرعة، ولا أظنّ أنني ركبت عربة أسرع منها! ولكن الرجل والمرأة وصلا قبلي، فقد كانت عربة الأجرة والعربة ذات الغطاء المتحرك بأحصنتهما المجهَدة تقفان أمام الباب حين وصلتُ. دفعت الأجرة وأسرعت بالدخول إلى الكنيسة، ولم يكن هناك أحد باستثناء الاثنين اللذين تبعتهما ورجل دين يرتدي رداء الكهنوت وقد بدا وكأنه يتجادل معهما، وقد اجتمع ثلاثتهم في مقدمة الكنيسة.

وأخذت أنا أمشي ببطء في الممر الجانبي كأي متسكع يذهب إلى الكنيسة... وفجأة، ولدهشتي، استدار الثلاثة ناحيتي، ثم جرى غودفري نورتون باتجاهي بأسرع ما يستطيع وصاح قائلاً: الحمد لله، سوف تفي بالغرض. تعالَ، تعال.

سألته قائلاً: ما الأمر؟!



Sydney Paget 1891 رسم سدني باجيت ١٨٩١

- تعالَ يا رجل، تعالَ فقط لثلاث دقائق وإلاّ فلن يكون الأمر قانونياً.

ثم اقتادني إلى حيث وقفت المرأة مع القسّ، وقبل أن أدرك أي شيء وجدت نفسي أغمغم بردود همست في أذني وأشهد بأشياء لا أعرف عنها شيئاً... وباختصار لقد كنت أساعد في توثيق ارتباط أيرين آدلر العزباء وغودفري نورتون العزَب! وقد انتهى كل شيء في غضون لحظات وقام السيد المحترَم بشكري من ناحية كما شكرتني السيدة من الناحية الأخرى في حين ابتسم لي القسّ بابتهاج من الأمام!

كان ذلك الموقف من أكثر المواقف غرابة في حياتي، وكان التفكير فيه هو ما دفعني إلى الضحك الآن! يبدو أن عقد زواجهما كان ينقصه بعض الشكليات، فقد رفض القسّ إتمام الزواج دون شاهد، أي شاهد. وهكذا فقد أنقذ ظهوري في الوقت المناسب العريسَ من الاندفاع في الشارع باحثاً عن شاهد، وقد أعطتني العروس جنيهاً ذهبياً أنوي أن أحتفظ به في سلسلة ساعتي تذكاراً.

قلت: لقد انقلبت الأمور بشكل غير متوقَّع، فماذا سيحدث بعد ذلك؟

قال: حسناً، أجد أن خططي مهدَّدة بفشل

ذريع، فيبدو أن الاثنين قد يغادران في الحال، وهذا يحتّم عليّ القيام بإجراء فعّال وسريع. على أية حال لقد افترقا عند باب الكنيسة حيث ذهب هو إلى إنرتمبل وذهبت هي إلى منزلها، وقد قالت وهي تفارقه: سأتنزّه بالعربة في الساعة الخامسة كالعادة.

لم أسمع المزيد، فقد ذهب كل منهما في اتجاه مختلف وغادرت أنا لأقوم بترتيباتي الخاصّة.

- وما هي هذه الترتيبات؟

أجابني وهو يقرع الجرس: بعض اللحم البارد وكوب من الحليب، فقد كنت مشغولاً لدرجة أنني لم أفكّر في الطعام، ومن المرجَّح أن أكون أكثر انشغالاً هذا المساء. بالمناسبة يا دكتور، سأحتاج إلى تعاونك.

- سأكون مسروراً بذلك.

- ألا تمانع في خرق القانون؟

- لا أمانع على الإطلاق.

- ولا في التعرّض لاحتمال القبض عليك؟

- ليس إن كان السبب جيّداً.

- السبب ممتاز.

- أنا طوع أمرك إذن.

- كنت متأكداً أن بإمكاني الاعتماد عليك.

- ولكن ما الذي تودّ تحقيقه؟

قال وهو يلتفت بلهفة إلى الطعام البسيط الذي أحضرته صاحبة البيت: بالرغم من أن السيدة تيرنر قد أحضرت الطعام إلاّ أنني سأوضح الأمر لك الآن، فأنا مضطر إلى مناقشة الأمر في أثناء الأكل لأنني لا أملك الكثير من الوقت. الساعة الآن نحو الخامسة، ويجب أن نكون في موقع الأحداث بعد ساعتين لأن الآنسة أيرين (أو بالأحرى السيدة) ستعود من نزهتها في السابعة، ويجب أن نكون في استقبالها عند مسكن بريوني.

- وماذا بعد ذلك؟

- يجب أن تترك الأمر لي، فقد رتبت ما سوف يحدث. أمر واحد أُصرّ عليه: يجب أن لا تتدخل مهما حدث، أتفهم؟

- يجب أن أكون محايداً.

- يجب أن لا تفعل أي شيء مهما كان. من المحتمل أن تحدث بعض المضايقات، فلا تتدخل، وستنتهي بأن يتمّ نقلي إلى المنزل، وبعد ذلك بأربع

أو خمس دقائق ستُفتَح نافذة غرفة الجلوس، ويجب عليك أن تقف بالقرب من هذه النافذة المفتوحة.

- ثم ماذا؟

- عليك أن تراقبني حيث سأكون في مجال رؤيتك، وعندما أرفع يدي هكذا ستلقي في الغرفة شيئاً سأعطيه لك بعد قليل، كما ستقوم في الوقت نفسه بإطلاق صيحة إنذار عن حريق. أتفهمني؟

- تماماً.

قال وهو يُخرِج لفّة طويلة من جيبه: إنها ليست بالشيء المؤذي؛ ليست سوى صاروخ دخان عادي يستخدمه عامل تركيب الأنابيب، وقد تمّ تركيب غطاء له على طرفيه ليصبح ذاتي الاشتعال. مهمّتك تقتصر على ذلك، فعندما تطلق صرخة إنذار بالحريق سيتناقلها عدد كبير من الناس، وعندها امضِ إلى آخر الشارع حيث سأنضمّ إليك بعد عشر دقائق. أرجو أن أكون قد وضّحت لك الأمر.

- يجب أن أبقى محايداً وأن أقترب من النافذة لأراقبك، وعند الإشارة ألقي بهذا الشيء في الداخل ثم أطلق صرخة إنذار بحريق، وبعد ذلك أنتظرك في آخر الشارع.

- تماماً.

- يمكنك إذن الاعتماد عليّ كلّياً.

- ممتاز، أعتقد أن الوقت قد حان لكي أقوم بإعداد نفسي للدور الجديد الذي سيكون عليّ لعبه.

* * *

اختفى هولمز داخل حجرة نومه، ثم عاد بعد عدّة دقائق وقد تنكّر في هيئة قسيس لطيف ساذج. كان يرتدي بنطالاً متهدلاً وربطة عنق بيضاء ويضع على رأسه قبّعة عريضة سوداء اللون، وكانت ابتسامته متعاطفة وشكله العامّ يوحي بالنبل والفضول الخيّر. لم يكن الأمر مقتصراً على أن هولمز يبدّل زيّه، بل بدا أن تعبيراته وتصرفاته وروحه نفسها تتبدّل مع كل دور جديد يقوم به. آه، لقد خسر المسرح فنّاناً جيّداً عندما تخصّص في مسائل الجريمة!

غادَرْنا مسكننا بشارع بيكر في الساعة السادسة والربع، وحين وصلنا إلى طريق سيربنتاين كان لا يزال أمامنا عشر دقائق قبل الموعد، وقد حلّ الغسق بالفعل وكانوا يضيئون مصابيح الشارع فيما كنا نتمشى ذهاباً وإياباً أمام مسكن بريوني في انتظار ساكنته. كان المنزل كما تصورته تماماً من خلال وصف هولمز المختصر المفيد، أمّا الحي فقد بدا أقل خصوصية مما توقعت،

بل على العكس بدا مليئاً بالحركة بشكل ملحوظ بالنسبة إلى كونه شارعاً صغيراً في منطقة هادئة، فقد كانت هناك مجموعة من الرجال ذوي الملابس الرثّة



رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

يدخّنون ويضحكون في إحدى الزوايا، وشخص بعجلة لشحذ المقصّات، والعديد من الشبان المتأنّقين يتسكعون في الشارع ذهاباً وإياباً.

علّق هولمز قائلاً فيما نحن نمشي أمام المنزل جيئة وذهاباً: أرى أن ذلك الزواج سلاح ذو حدّين الآن، فيُحتمَل أن لا ترغب السيدة في أن يرى السيد غودفري نورتون الصورةَ بنفس القدر الذي يحرص به عميلنا على أن لا تقع عليها عينا أميرته. والسؤال الآن هو: أين يمكن أن نجد الصورة؟

- فعلاً، أين؟

- إن من غير المحتمَل أن تحمل الصورة معها، فهي كبيرة -كما عرفنا- بحيث لا تستطيع إخفاءها في ثوبها، كما أنها تعلم أن الدوق قادر على أن يأمر بقطع الطريق عليها وتفتيشها، فقد تمت محاولتان من هذا النوع بالفعل. يمكننا أن نسلم -إذن- بأنها لا تحملها معها.

- أين هي إذن؟

- مع المصرفيّ الذي تتعامل معه أو مع محاميها، كلا الأمرين محتمَل، ولكنني أميل إلى الاعتقاد بأنها لن تتركها مع أحدهما، فالنساء بطبعهن يملنَ إلى الكتمان ويفضّلنَ القيام بأمورهن السرّية بأنفسهن.

ولماذا تعطي الصورة لشخص آخر؟ إنها تثق بنفسها لحراستها، وبالإضافة إلى ذلك يجب أن تتذكر أنها تنوي استخدامها خلال الأيام القليلة المقبلة، ولذلك لا بدّ أن تكون قد وضعتها حيث تستطيع الوصول إليها بسرعة... لا بدّ أن تكون في منزلها الخاصّ.

- ولكن لقد تمّ السطو عليه مرتين.

- هراء! فهم لم يعرفوا أين يبحثون.

- ولكن كيف ستبحث أنت؟

- لن أبحث.

- ماذا ستفعل إذن؟

- سأجعلها ترشدني.

- ولكنها سترفض.

- لن تستطيع الرفض... ها أنا أسمع قعقعة العجلات، والآن نفّذ أوامري بحذافيرها.

ظهر الضوء الجانبيّ لإحدى العربات وهي تنعطف حول ركن الشارع الواسع حينما كان يتكلم، وقعقعت عربة صغيرة أنيقة ذات غطاء متحرك حتى وصلت إلى باب مسكن «بريوني». أسرع أحد المتسكعين عند الزاوية إلى الأمام حتى يفتح باب

العربة أملاً في الحصول على قطعة نقود معدنية عندما توقفت، ولكن قام متسكع آخر بدفعه بعيداً بكوعه ثم أسرع ليحلّ محلّه، فنشب صراع عنيف ازداد بتدخّل الحارسَين اللذين وقفا بجانب أحد المتسكعين في حين وقف الشخص الذي يقوم بشحذ المقصّات مع الآخر بنفس الحرارة. بدأ الضرب، وفي لحظة أصبحت السيدة -التي كانت قد نزلت من العربة- وسط



رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

مجموعة من الرجال الثائرين المتعاركين الذين يضرب بعضهم بعضاً بشكل همجي بالعصيّ والقبضات.

أسرع هولمز إلى الحشد ليحمي السيدة، ولكن ما إن وصل إليها حتى صاح وسقط أرضاً والدم يسيل على وجهه بغزارة! فرّ الحارسان عند سقوط هولمز في اتجاه وفر المتسكعون في اتجاه آخر، في حين ظلّ بعض الناس الأفضل مظهراً والذين كانوا ينظرون إلى الأحداث دون المشاركة فيها لمساعدة السيدة ومعالجة الجريح. أسرعت أيرين آدلر تصعد الدرَج، ولكنها وقفت على قمّته واستدارت لتنظر إلى الشارع فيما أبرزت أنوار القاعة روعة قوامها. سألَت: هل أُصيبَ الرجل المسكين؟

صاحت عدّة أصوات: لقد مات!

صاح صوت آخر: لا، إنه على قيد الحياة، ولكنه قد يموت قبل أن تأخذوه إلى المستشفى.

قالت امرأة: إنه رجل شجاع، فلولاه لسرقوا حقيبة السيدة وساعتها. إنهم عصابة... عصابة شريرة! آه، إنه يتنفس الآن.

- لا يمكن أن يرقد في الشارع، أيمكننا إدخاله يا سيدتي؟

- بالطبع، أدخلوه إلى حجرة الجلوس. هناك أريكة مريحة... من هنا لو سمحتم.

قاموا بحمله إلى داخل مسكن بريوني ببطء



Josef Friedrich 1906 رسم جوزف فريدرتش ١٩٠٦

واحترام، ووضعوه في الغرفة الرئيسية في حين كنت لا أزال أراقب ما يحدث من موقعي. كانت المصابيح قد أضيئت إلاّ أن الستائر لم تُغلق، ولذلك تمكنت من رؤية هولمز وهو راقد على الأريكة وإن لم أستطع معرفة ما إذا كان يشعر بتأنيب الضمير في تلك اللحظة بسبب الدور الذي يلعبه، فقد شعرت بخزي لم أشعر به في حياتي من قبل حين رأيت المخلوقة الجميلة التي أتآمر ضدها، ولا سيما حين رأيت مقدار لطفها وتعاطفها مع الجريح. ولكني شعرت بأنني لو انسحبت من الدور الذي عهد إليّ به هولمز فسوف تكون خيانة عظمى، ولذلك تماسكت وأخرجت صاروخ الدخان من تحت عباءتي، وفكّرت في أننا -في نهاية المطاف- لن نؤذيها بل سنمنعها من إيذاء شخص آخر.

جلس هولمز على الأريكة، ورأيته يتحرك كمن يشعر بالاختناق فأسرعَت الخادمة عبر الغرفة وفتحت النافذة، وفي نفس اللحظة رأيته يرفع يده فرميت بصاروخي في الغرفة وأنا أصرخ: حريق... حريق!

لم تكَد الكلمة تخرج من فمي حتى اجتمع كل مَن في الشارع على اختلاف فئاتهم: السادة وسائسو الخيل والخادمات... في صرخة واحدة: حريق!

تجمعت سحب الدخان عبر الغرفة وخرجت من النافذة المفتوحة، ولمحت خيالات لأشخاص

يتدافعون ثم سمعت بعد دقيقة صوت هولمز من الداخل يطَمْئنهم بأنه إنذار كاذب، وبعد ذلك تسلّلتُ عبر الحشد الصارخ وذهبت إلى ركن الشارع حيث سعدت بعد عشر دقائق عندما وضع صديقي ذراعه في ذراعي وانطلقنا بعيداً عن الضجيج.

* * *

مشى هولمز بسرعة وبصمت لعدّة دقائق حتى انعطفنا لنمشي في أحد الشوارع الهادئة المؤدّية إلى طريق إدجوير، ثم علق قائلاً: لقد قمتَ بدورك بشكل جيّد يا دكتور، فلم يكن الأمر ليتمّ بطريقة أفضل.

- هل الصورة معك؟

- أعرف أين هي.

- وكيف اكتشفت ذلك؟

- لقد أرشدَتني هي إليها، تماماً كما أخبرتك من قبل.

- لا زال الأمر غامضاً بالنسبة إليّ.

قال ضاحكاً: لا أنوي أن أجعل من هذه المسألة لغزاً، فهي في غاية البساطة. أنت فهمت بالطبع أن كل مَن في الشارع كان شريكاً لنا، فقد استأجرتهم لهذا المساء.

- هذا ما استنتجته.

- وهكذا فعندما اندلع العراك كان في كفّ يدي بعض الطلاء الرطب، وأسرعت إلى الأمام وسقطت فضربت بيدي على وجهي ليصبح شكلي مثيراً للشفقة... إنها لعبة قديمة.

- استطعت فهم هذا أيضاً.

- وبعد ذلك حملوني إلى الداخل. لقد كانت مضطرّة إلى السماح بدخولي، فما الذي كان يمكن أن تفعله؟ وهكذا أدخلت إلى غرفة الجلوس، وهي الغرفة التي كنت أشكّ في وجود الصورة فيها، وقد وقع شكّي عليها وعلى غرفة النوم وكنت مصرّاً على التأكد من ذلك. قاموا بوضعي على الأريكة، وحين أشرتُ إلى أنني أحتاج إلى الهواء اضطرّوا إلى فتح النافذة فأتيحت لك الفرصة.

- وكيف ساعدك ذلك؟

- لقد كان في غاية الأهمية، فعندما تعتقد امرأة أن منزلها يحترق تدفعها غريزتها إلى الإسراع إلى الشيء الأكثر أهمية بالنسبة إليها، وهذا ردّ فعل قاهر قمت باستغلاله أكثر من مرة من قبل. لقد كان مفيداً لي في قضيّة دارلنغتون وفي مسألة قلعة آرنشورث، حين أسرعت المرأة المتزوجة إلى طفلها لتحتضنه في حين

أسرعت الأخرى غير المتزوجة إلى علبة جواهرها لتأخذها... والآن ظهر لي أن السيدة التي نعمل في قضيتها اليوم لم تملك في المنزل ما هو أكثر قيمة بالنسبة إليها من الصورة التي نسعى وراءها، وسوف تسرع لتأمينها.

تمّ تنفيذ إنذار الحريق بشكل مثير للإعجاب، وكان الصراخ والدخان كافيَين لتهتزّ أعصابها الحديدية. وقد كان ردّ فعلها ممتازاً، فالصورة في تجويف في الجدار خلف لوحة منزلقة فوق حبل الجرس في الناحية اليمنى، وقد ذهبَت إلى هناك في لحظة فلمحتُ الصورة حين بدأت بإخراجها، ولكن عندما صحتُ بأنه كان إنذاراً كاذباً أعادتها ثانية، ثم نظرت إلى الصاروخ وأسرعت إلى خارج الغرفة، ولم أرَها منذ ذلك الوقت. وبعد ذلك وقفتُ وقدّمت بعض الأعذار لأغادر المنزل، وقد ترددت فيما إذا كان عليّ أن أحاول الحصول على الصورة في الحال، ولكن سائق العربة دخل وأخذ يراقبني فبدا أن من الأسلم أن أنتظر حيث إن بعض التهوّر الزائد قد يُفسِد كل شيء.

سألته قائلاً: والآن؟

- لقد انتهى تحقيقنا تقريباً، فسوف أزورها أنا والدوق، ولا مانع من أن تأتي معنا إن أردت. سوف يدخلوننا إلى غرفة الجلوس لننتظر السيدة، ولكن من

المحتمَل أنها لن تجدنا عند قدومها ولن تجد الصورة أيضاً، فقد يشعر فخامة الدوق بالرضا عندما يستعيدها بيده.



رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

- ومتى ستذهبان؟

- في الثامنة صباحاً. لن تكون قد استيقظَت بعدُ مما سيفسح لنا المجال. يجب أن نسرع لأن هذا الزواج قد يعني تغييراً كاملاً في حياتها وعاداتها، ولذا يجب عليّ أن أرسل برقية إلى الدوق بلا تأخّر.

كنا قد وصلنا إلى شارع بيكر وتوقّفنا عند الباب، وكان يبحث عن المفتاح عندما قال أحد المارّة: مساء الخير يا سيد شيرلوك هولمز.

كان على الرصيف عدّة أشخاص في ذلك الوقت، ولكن بدا أن التحية قد جاءت من شابّ نحيل يرتدي عباءة وقد أسرع مبتعداً، فقال هولمز وهو يحملق إلى الشارع المعتم: لقد سمعت هذا الصوت من قبل، والآن أتساءل: من يمكن أن يكون هذا الشخص؟

* * *

نمت في مسكن هولمز بشارع بيكر تلك الليلة، وكنا منهمكِين في تناول القهوة وشرائح الخبز في الصباح عندما اندفع ملك بوهيميا إلى داخل الغرفة، وقد جذب هولمز من كتفيه وصاح قائلاً وهو ينظر إلى وجهه بلهفة: أحصلتَ عليها بالفعل؟

- ليس بعد.

- ولكن لديك ما يحملك على الأمل.

- أرجو ذلك.

- فلنذهب إذن، لا أطيق الانتظار.

- يجب أن نستأجر عربة.

- لا ؛ عربتي تنتظر.

- هذا يسهّل الأمور إذن.

نزلنا وانطلقنا مرة أخرى باتجاه مسكن بريوني، وعلّق هولمز قائلاً: لقد تزوجَت أيرين.

- تزوجت! متى؟

- أمس.

- ولكن مَن؟

- محامياً إنكليزياً اسمه نورتون.

- ولكن لا يمكن أن تحبه.

- عندي أمل في أنها تحبه.

- ولماذا هذا الأمل؟

- لأن ذلك سيوفّر على جلالتك كل الخوف من أي مضايقات في المستقبل. إن كانت السيدة تحب

زوجها فهي لا تحبك، وإن كانت لا تحبك فلا سبب يدفعها إلى التدخل في خططك.

- هذا حقيقي، وبالرغم من ذلك... حسناً، كنت أرجو أن تكون من نفس مكانتي الاجتماعية، فعندها كان يمكن أن تصبح دوقة لا مثيل لها.

ثم غرق في بحر من الصمت الكئيب الذي استمرّ حتى توقّفنا عند طريق سيربنتاين.

كان باب مسكن بريوني مفتوحاً وقد وقفَت سيدة مسنّة على الدرَج، وراقبَتنا بنظرة ساخرة فيما كنا نهبط من العربة. قالت: السيد شيرلوك هولمز على ما أعتقد؟

هزّ رفيقي رأسه بالإيجاب وهو ينظر إليها بشكّ، أو بالأحرى يحدّق إليها بفزع، فقالت: لقد أخبرتني سيدتي أنه من المرجَّح أن تزورنا، وقد غادرَت هي وزوجها في قطار الساعة الخامسة والربع الذي ينطلق من محطة تشيرِنْغ كروس متجهاً إلى القارة الأوروبية.

تراجع هولمز إلى الخلف وقد شحب لونه من المفاجأة والحسرة وقال: ماذا؟! أتقصدين أنها غادرت إنكلترا؟

- ولن تعود أبداً.

سأل الملك بصوت أجشّ: والأوراق ضاعت كلها؟

هتف هولمز: سنرى.

ثم اندفع متجاوزاً الخادمة وأسرع إلى غرفة الرسم وتبعتُه أنا والملك. كان الأثاث مبعثَراً في كل اتجاه والرفوف والأدراج مفتوحة كما لو كانت السيدة قد أفرغتها بسرعة قبل هروبها! أسرع هولمز إلى حبل الجرس وأزاح لوحة منزلقة صغيرة وأدخل يده فسحب صورة وخطاباً. كانت الصورة لأيرين آدلر نفسها في ملابس السهرة، وكان مكتوباً على الخطاب من الخارج «شيرلوك هولمز المبجَّل. يبقى الخطاب في مكانه حتى يأتي السيد هولمز لاستلامه».

فتح صديقي الخطاب وقرأناه معاً. كان تاريخه منتصف الليلة الماضية، ونصّه كما يأتي:

عزيزي السيد هولمز،

لقد قمتَ بالأمر بشكل رائع جدّاً وخدعتَني تماماً، فحتى إنذار الحريق لم ينتَبْني أي شكّ، ولكن بعد ذلك عندما اكتشفت كيف فضحت نفسي بدأت بالتفكير، فقد حذّروني منك منذ عدّة شهور وأخبروني أنه إذا ما قام الملك باستخدام محقق خاص فسوف يكون أنت بالتأكيد، كما أعطوني عنوانك. وبالرغم

من ذلك فقد أجبرتَني على كشف ما تريد معرفته، وحتى بعد أن شككت فيك وجدت أن من الصعب أن أسيء التفكير بمثل هذا القسّ العجوز اللطيف القريب إلى القلب، ولكن وكما تعرف فقد تدرّبت أنا نفسي على التمثيل، كما أن التنكّر ليس بالشيء الجديد عليّ، بل إنني أتنكر بأزياء الرجال في بعض الأحيان لتحقيق بعض المآرب. وهكذا فقد أرسلت سائقي جون ليراقبك وأسرعت إلى الطابق العلوي حتى أرتدي ملابس المشي (وهذا هو الاسم الذي أطلقه عليها) ثم نزلت في الوقت الذي كنتَ تغادر فيه.

ثم تبعتُك حتى باب منزلك فتأكدت أنني كنت محور اهتمام السيد شيرلوك هولمز الشهير، وبعد ذلك تمنّيت لك ليلة سعيدة واتجهت إلى إنَرْتمبل لرؤية زوجي، وقد اتفقنا كلانا على أن الحل الأمثل هو الهروب عندما يطاردنا مثل هذا العدوّ الرهيب، ولذلك ستجد العشّ خالياً عندما تزورنا غداً.

أمّا الصورة فطَمْئِن عميلك، فأنا أحب رجلاً أفضل منه وهو يبادلني الحب. إنني أحتفظ بالصورة لأحمي نفسي فقط ولأمتلك سلاحاً يحميني دائماً من أية خطوات قد يقوم بها في المستقبل. وها أنا أترك صورة أخرى قد يرغب

هو في الاحتفاظ بها.

وتقبل تقديري يا عزيزي السيد شيرلوك هولمز.

المخلصة: أيرين آدلر.

صاح الملك: يا لها من امرأة... يا لها من



رسم سدني باجيت ١٨٩١ Sydney Paget 1891

امرأة! ألم أقُل لك كم هي سريعة وحاسمة؟ أليس من المؤسف أنها ليست من مستواي الاجتماعي؟

قال هولمز ببرود: لقد بدا لي -مما رأيت من تصرّفات السيدة- أنها حقاً من مستوى مختلف عن مستوى جلالتك! أنا آسف لأنني لم أستطع إنهاء قضيتك بشكل أكثر نجاحاً.

صاح الملك: على العكس يا سيدي العزيز، فلا شيء أكثر نجاحاً؛ فأنا أعرف أنها تحترم وعدها، وهكذا فالصورة الآن في أمان كما لو كانت قد أحرقت.

- أنا سعيد بسماع هذا الكلام.

- أنا مَدين لك بشدة. أرجو أن تخبرني كيف أستطيع مكافأتك؟ هذا الخاتم؟

خلع من إصبعه خاتماً من الزمرّد على شكل أفعى ووضعه على راحة كفّه الممدودة، فقال هولمز: جلالتك تملك شيئاً أغلى قيمة عندي.

- ليس عليك إلاّ أن تطلبه.

- هذه الصورة.

نظر إليه الملك بذهول وصاح: صورة أيرين؟! بالتأكيد... إذا كانت هذه رغبتك.

- أشكرك يا صاحب الجلالة. انتهت هذه المسألة إذن، ويشرفني أن أتمنّى لك صباحاً سعيداً.

ثم انحنى واستدار، وانطلقنا كلانا باتجاه منزله.

كانت هذه هي حكاية الفضيحة الكبرى التي هدّدت مملكة بوهيميا، وكيف تغلّب ذكاء امرأة على خطط شيرلوك هولمز. وقد اعتاد أن يمدح دهاء النساء على العموم، أما حين يأتي على ذكر أيرين آدلر أو عندما يشير إلى صورتها فإنه يستخدم دائماً تلك التسمية الموحية: «المرأة»!

* * *

-النهاية-

صدر من هذه المجموعة

مغامرات شيرلوك هولمز

(١) فضيحة في بوهيميا
(٢) قضية هوية
(٣) عصبة ذوي الشَّعْر الأحمر
(٤) لغز وادي بوسكومب
(٥) بذور البرتقال الخمس
(٦) ذو الشّفة الملتوية
(٧) مغامرة الجوهرة الزرقاء
(٨) لغز العصابة الرقطاء
(٩) مغامرة إبهام المهندس
(١٠) مغامرة النبيل الأعزب
(١١) مغامرة تاج الزمرّد
(١٢) منزل الأشجار النحاسية

ذكريات شيرلوك هولمز

(١) ذو الغُرّة الفضية
(٢) لغز الطرد البريدي
(٣) لغز الوجه الأصفر
(٤) مغامرة موظف البورصة
(٥) سفينة «غلوريا سكوت»
(٦) وصية عائلة موسغريف
(٧) لغز بلدة ريغيت
(٨) مغامرة الرجل الأحدب
(٩) لغز المريض المقيم
(١٠) مغامرة المترجم اليوناني
(١١) وثائق المعاهدة البحرية
(١٢) المشكلة الأخيرة